جدوى الموسوعيّة والدّراسات البينيّة في التّكامل المعرفيّ

أ. د. محمّد فتحي فرج*
mffbayomy@yahoo.com

ملخص:

يناقش هذا المقال جدوى الموسوعية والدراسات البينية لتحقيق التكامل المعرفي للمثقفين ذوي الاهتمامات العلمية المتباينة؛ وعلى هذا فمن الضروري تلبية الاحتياجات الثقافية لأولئك المتخصصين لسد الفجوة بينهم حتى لا يشعرون بأنهم يعيشون في جزر منعزلة! ونعنى بالموسوعية القراءة الشاملة والجادة في مختلف الفنون والعلوم والآداب بتخصصاتها المختلفة.

أما الدارسات البينية فهي تلك الدراسات التي تنزع نحو منهج يساعد في تبادل الخبرات البحثية والمعرفية؛ ومِن ثَمَّ الاستفادة من الخلفيات الفكرية والمناهج البحثية المتباينة بين الباحثين والمفكرين وإدماجها في إطار مفاهيمي ومنهجي شامل يعمل على توسيع مجال دراسة الظواهر والقضايا سعيا نحو تقديم فهم أفضل لها.

أما التكامل المعرفي فيمكن النظر إلى مفهومه بأنه عملية تنطوي على دمج وإدراج بنية معلوماتية جديدة في كيان معرفي قائم؛ ذلك أنهما يشتركان في بنية مفاهيمية واحدة أو درجة من الصلة أو العلاقة الموضوعية، حيث يعمل التكامل

* أستاذ علم الحيوان (علم وظائف الأعضاء) المتفرغ، كلية العلوم، جامعة المنوفية.

المعرفي على تحديد كيفية تكامل المعلومات الجديدة مع الكيان المعرفي القائم، وكيف يمكن أن يتم تعديل هذا الكيان المعرفي لاستيعاب المعلومات الجديدة.

كما أكد الكاتب على أهمية القراءة في كل مجالات المعرفة الإنسانية، وغالبًا ما يتطلب المشتغلون بالمجالات الإبداعية لاسيما النقد الأدبي الوقوف على مثل هذه الأنشطة من القراءة الموسوعية إلى الاهتمام بالدراسات البينية سعيا نحو التكامل المعرفي. ولتوضيح هذه الأفكار لجأ المؤلف إلى الاعتماد على مجموعة من الأمثلة، استلها من التراث الثقافي العربي والغربي قديمها وحديثها.

لا مندوحة لنا – قبل الولوج إلى لبّ موضوعنا– عن التطرق إلى تحديد بعض المفاهيم أولاً، منها ما أعنيه بالموسوعيّة والدارسات البينيّة والتّكامل المعرفيّ؛ إذ إنّ تحديد هذه المفاهيم يهمنا كثيراً في توضيح ما نريد مناقشته في هذا المقال من بعض الرؤى والأفكار حول هذه القضايا الإبيستمولوجية الهامة.

<u>الكلمات المفتاحية:</u> الدراسات البينية – مفهوم الموسوعية – تعريف التكامل المعرفي – الموسوعية في التراث العربي والغربي – ثقافة الناقد.

<u>الموسوعيّة:</u>

أمّا الموسوعيّة Encyclopedism فنعنى بها التوغل المعرفي العام والجاد في مختلف ألوان الفنون والعلوم والآداب من خلال تخصصاتها المختلفة، ولا يفوتنا في هذا المقام بيان أن لفظة "موسوعية" منسوبة إلى كلمة "موسوعة" Encyclopedia وهي المقابل اللاتيني للأصل اليوناني enkýklios paideía التي تعنى لُغويّاً "التعليم الشامل" all–around education (طبقا

لدائرة المعارف البريطانية Britannica, 2013 Encyclopedia). ونحن نعرف أن "الموسوعة" أو "دائرة المعارف" هي: المؤلف الذي يحتوى على معلومات . تطول أو تقصر تبعاً لطبيعية ونوعية الموسوعة حول موضوعات المعرفة الإنسانية المختلفة من علوم، وفنون، وآداب وتكنولوجيا، إلى غير هذا وذاك من مجالات الثقافة والمعرفة. ويغلب على معلوماتها الشمولية والاختصار، وليس معنى هذا أنها تفتقر إلى الدقة أو الموضوعية، فالموسوعة الجيدة يحرص رئيس تحريرها على أن يشارك في تحرير موضوعاتها المتخصصون فحسب ، كلٌ في مجاله. ومن الكتاب الموسوعيين على المستوى العالمي كل من جان جاك روسو، وفولتير، وديدرو، وغيرهم. (Britannica Concise Encyclopedia. 2006, p. 620).

العقاد نموذجا للكاتب الموسوعي العربي:

وفي ضوء ما تقدّم فإن الكاتب الموسوعيّ هو الكاتب الطُّلعة في المجالات المعرفية المتنوعة، وكلّما أخلص ودأب على القراءة العميقة تكونت لديه حصيلة معرفية جيدة أمكنته هذه من الولوج باطمئنان في مثل هذه الحقول، ومن الأمثلة البارزة في هذا الصدد، في القرن العشرين، الكاتب والمفكر العربي الكبير عباس محمود العقاد. وقد بلغ من تضلعه الثقافيّ في المجالات العلمية البعيدة عمّا تخصص فيه الرجل كأديب وناقد وشاعر، أنه كان يقارع أصحاب التخصص في مجمع اللغة العربية الحجة بالحجة، ضارباً لهم الأمثلة من واقع تخصصاتهم معتمداً في هذا على أحدث المراجع في تخصصاتهم، كما شهد بهذا عالم النبات الدكتور عبد الحليم منتصر الذي يقول عنه: عملاق من عمالقة الفكر والأدب ..

واسع الاطلاع حتى في العلوم كالنبات، والكيمياء، والطّب، والفلك وما إليه، ناقشني مرة قائلاً إنه يعرف في النبات، كما ناقش غيري قائلاً إنه يعرف في الطب، ولا مراء في أنه قارئ، وكاتب، ومفكر من الطراز الأول، واسع المعرفة والاطلاع بشكل موسوعي لا أعرف له نظيراً، وكان في رأيي مثال المثقف من الطراز الأول.. كما كان يدخل في تفاصيل لا يعرفها إلا المختص مما يثير بعض الجدل إلا إن الذي لا مراء فيه أن العقاد كان أمّة وحده في مجال المعرفة والثقافة والأدب. [1]

الدراسات البينية:

أما الدارسات البينية فهي تلك الدراسات التي تنزع نحو منهج يساعد في تبادل الخبرات البحثية والمعرفية؛ ومِن ثَمَّ الاستفادة من الخلفيات الفكرية والمناهج البحثية المتباينة بين الباحثين والمفكرين وإدماجها في إطار مفاهيمي ومنهجي شامل يعمل على توسيع مجال دراسة الظواهر والمشكلات سعياً نحو تقديم فهم أفضل لها؛ وهو الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى الخروج بنتائج دقيقة وتقديم حلول مفيدة يمكن تطبيقها.

وبمعنى أكثر اختصاراً وتبسيطاً فإن الدراسات البينية .كما اتفق بشأنها معظم التربويين، هي نوع من الحقول المعرفية الجديدة الناشئة من تداخل عدة حقول أكاديمية تقليدية أو مدارس فكرية تفرضها طبيعة المتطلبات المستحدثة؛ فكلمة المجال البيني interdisciplinary في الإنجليزية مثلا تتألف من مقطعين: inter وتعنى "بين" ، والثاني discipline وتعنى "مجال دراسي" معين؛ ومن ثمّ فإن مثل هذه الدراسات يمكن الاعتماد عليها في الإجابة عن بعض الأسئلة أو

معالجة بعض الموضوعات الواسعة والمعقدة التي لا يكفي التعامل معها عن طريق نظام أو تخصص واحد.[2]

وللتأكيد على أهمية الدارسات البينية يرى إدجار موران أن تاريخ العلوم ليس هو تاريخ المسار التخصصي فحسب، وإنما هو أيضا تاريخ تغيُّر الحدود التخصصية، وهجرة بعض المشكلات والمفاهيم والمناهج من تخصص إلى آخر، وتشكُّل تخصصات هجينة، وهو كذلك تاريخ تكتل التخصصات والتصاق بعضها ببعض حتى إنه يقول: "إذا كان التاريخ الرسمي للعلم هو تاريخ التخصصية disciplinarity فإن تاريخاً آخر متّصلاً به أشدّ الاتصال وغير منفصل عنه هو تاريخ التخصصية البينية Interdisciplinarity، والتخصصية المتجاوزة Transdisciplinarity ، والتخصصية المتعددة Polydisciplinarity."[3]

ولعله من اللافت للنظر أن الواقع العلمي المعاصر يشهد الآن تخصصات لا تُسمى ولا يُشار إليها إلا بصيغة الجمع؛ وذلك لجمعها بين عدد من التخصصات، ومن ذلك مثلا: "العلوم البيئية" و "العلوم الصحية"، و "الدراسات النسوية"، و "علوم الاتصال"، و "العلوم العرفانية"[4]، وثمة علوم أخرى نبتت من رحم علمين أو أكثر كعلم الكيمياء الحيوية الذي جمع وزاوج بين البيولوجيا والكيمياء، وكذا الحال بالنسبة لعلم الفيزياء الحيوية (البيوفيزياء)، وعلم السموم الذي اعتمد على عدة علوم كعلوم البيولوجيا والكيمياء والفيزياء والطب والصيدلة، وغيرها.

التكامل المعرفي:

أما التكامل المعرفي Knowledge integration فيمكن النظر إلى مفهومه بأنه عملية تنطوي على دمج وإدراج بنية معلوماتية جديدة في كيان معرفي قائم؛ ذلك أنهما يشتركان في بنية مفاهيمية واحدة أو درجة من الصلة أو العلاقة الموضوعية، حيث يعمل التكامل المعرفي على تحديد كيفية تكامل المعلومات الجديدة مع الكيان المعرفي القائم، وكيف يمكن أن يتم تعديل هذا الكيان المعرفي لاستيعاب المعلومات الجديدة، وكيف يمكن تعديل المعلومات الجديدة في ضوء المعرفة الحالية. كما يمكن أيضاً أن ينظر إلى التكامل المعرفي في سياقه المجرد بأنه "العملية التي تكفل القدرة على تجميع وتوليف وتلخيص نماذج من البيانات Data Models داخل نموذج مشترك أو نموذج واحد يوفر حالة معرفية فريدة.[5]

وبصورة أكثر بساطة ووضوح يمكن القول أيضاً أن التكامل بين العلوم يعني أن علماً معيناً يحتاج إلى أن يتكامل مع علم آخر أو أكثر من أجل تطويره وتقدمه؛ أو يعنى حاجة الإنسان في فهمه لعلم معين إلى علوم أخرى تعين في تحقيق هذا الفهم. وتبدو مسألة التكامل في هذه الحالة أكثر وضوحاً، ويكون المفهوم مفتوحاً؛ إذ تضاف إليه أبعاد جديدة كلما لزم الأمر؛ فمثلاً يسهل القول بضرورة تكامل جهود العلماء من التخصص العلمي نفسه الذين يسعون إلى حل مشكلة علمية معينة وتحقيق إنجاز فيها. ويكون التكامل هنا مُنْصبّاً على الجهود الفردية للعلماء؛ لبناء رؤية جماعية أكثر عمقاً واتساعاً وموضوعية؛ مما يعين

في تحقيق إنجاز ملموس، ويسهل أمر قبوله والاعتراف به من الجماعة العلمية.[6]

وعندما تبذل الجهود الكافية وتتوفر الإرادة المطلوبة للتعامل مع العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية والاجتماعية، على أساس إبراز الوحدة والتكامل بينها في برامج التعليم، فسوف تجد الجامعات نفسها بحاجة ماسة إلى إعادة تصميم برامجها، ليكون المتخصص في المجالات العلمية مثلاً، أكثر قدرة على اتخاذ قرارات حكيمة في بحثه في قضايا العلوم، وفي تصميمه لتطبيقاتها في الصناعة والأعمال والخدمات، وليكون المتخصص في العلوم الإنسانية والاجتماعية قادراً على المشاركة الواعية في الاختيار الحكيم، واتخاذ الموقف إزاء قضايا ذات علاقة بالعلوم.[7]

هذا، ومازلت أتذكر بعض المقولات التي تتعرض بالتعريف للإنسان، ومنها على سبيل المثال: "الإنسان حيوان ناطق"، ولعلها أقدمها فيما أعتقد. ومنها أيضاً: "الإنسان حيوان ضاحك"، ومنها كذلك: "الإنسان حيوان متخصص" .. إلى غير هذا وذاك من التعريفات.

والذي أود الالتفات إليه هو التعريف الأخير؛ إذ إن التخصص والتقوقع في دهاليزه الضيقة يعمل على تسطيح الإنسان أو على الأرجح يفقده البُعد الثالث الذي يتمثل في عمقه الإنساني، بل ويحدُّ من قدرته على البيان والتعبير المُجنح البليغ؛ فلو لم يكن أرسطو عالماً بالحيوان وفيلسوفاً وصاحب منطق بل وواضع أصوله، أقول لو لم يجمع أرسطو بين كل هذه المجالات لما واتته القدرة على التعبير بهذه الصورة المكثفة: "الإنسان حيوان ناطق"، ولما استطاع أن يصوغ

هذه المقولة في هذا القالب البليغ المختصر، والدّال الذي استطاع أن يصمد كل هذه القرون، ويشير إليه الكتاب والباحثون في كل اللغات الحية ويفسرونه أو يأولونه بطرق شتى.

وقديما عرفوا الأديب الحق بأنه "ذلك الذي يأخذ من كل فن بطرف"، وإذا كنا لا نتفق تماماً مع هذه المقولة فإنه لا يمكننا في الوقت ذاته أن نغفل الإشارة المتضمنة فيها من ضرورة اطلاع الأديب . بقدر ما يستطيع . على كل مناحي الفنون والعلوم والآداب.

وإذا كان من لوازم التعبير والإبانة بالنسبة للمبدع اطلاعه العام على مختلف الآداب والعلوم والمعارف فإن وظيفة الناقد تحتم عليه الوقوف الدقيق على شتى ألوان المعارف والعلوم بلغته ولغة أجنبية واحدة على الأقل؛ إذ إن حصيلته المعرفية ومخزونه الثقافي العام . ولا أستثنى هنا الثقافة العلمية . هى من أهم أدواته التي يعتمد عليها، وتساعده في الفهم والتقويم، وبيان ما أودع المبدع في نصه من جواهر وأسرار، وما انطوى عليه نص كاتب آخر من سخافات وقشور.

وقد تعرض العلم والثقافة العلمية للتجاهل فترة طويلة، امتدت عبر التاريخ إلى هذه المرحلة؛ حتى إن نقابة اتحاد الكتاب بمصر – على سبيل المثال– لا تعترف بمثل هذه الأنشطة، ولا بمزاوليها؛ ومن ثم لا تضمهم في عضويتها إلا إذا كان لهم إنتاج أدبىّ خالص، لا يمت بصلة ما – من قريب أو بعيد– بالعلم أو الثقافة العلمية.

بيد أن الصورة مختلفة على المستوى الواقعي العام؛ إذ لم يعد ثمة خلاف حول العلم وأهميته وتطبيقاته في كل مناحي حياتنا حيث إنه بات يؤثر في الحياة

البشرية بشكل مباشر أو غير مباشر بدءاً من توفير الغذاء، ومكافحة الأمراض، وإطالة متوسط عمر الإنسان، وتحقيق طفرة في مستويات المعيشة [8]، ولكننا نصبو لأن تتغلغل الثقافة العلمية في نفوس الصغار والكبار، بل وبين والمشتغلين بالعلم أنفسهم الذين يتقوقعون داخل تخصصاتهم، ولا يدرون ماذا يدور خارجها، وبالأحرى غير المتخصصين في العلم الذين – بالتأكيد– ستتغير نظرتهم للأشياء بعد الارتواء من معين الثقافة العلمية، وتستقيم طرائق التعبير لديهم حتى في مجال تخصصاتهم. وتحضرنى الآن بعض الأمثلة المثيرة للضحك والرثاء في آن واحدٍ!! فقد استرعى انتباه بعض المُراقبين، عقب سرقة لوحة "زهرة الخشخاش" للفنان الهولندى الشهير "ڤان جوخ"، من "متحف محمد محمود خليل وزوجته" بالقاهرة، والمعروف "بمتحف الفن الحديث"، أن اعتبر بعض كبار الكتاب والصحفيين أن زهرة الخشخاش هي التي يُستخرج منها المخدر الشعبي المعروف في مصر "بالحشيش"، وهذا خطأ علمي لا يقع فيه طالب الفرقة الأولى في كلية الصيدلة أو الطب أو العلوم، ممن يدرسون النباتات الطبية وما إليها، وأخذ هؤلاء الصحفيون يبنون على هذا الخطأ بعض النِّكات والمواقف المُضحكة!!

والصحيح أن نبات الخشخاش يُستخرج منه مادة الأفيون، ومن الأفيون يمكن تحضير المستحضر المعروف "بالمورفين" الذي يستخدم طِبِّيا كمخدر ومسكِّن للآلام. ومن المورفين يمكن تحضير مادة مخدرة أخرى أكثر شراسة هي الهروين Heroin ولو أن هناك ثقافة علمية بسيطة لما وقع بعض كبار الصحفيين في مثل هذه الأخطاء، التي جعلتهم مثار ضحك بعض صغار التلاميذ! أما جوهر

الحشيش فيُستخرج من نبات آخر يُعرف بالقنب الهندي، واسمه العلمي *Cannabis sativa*.[9]

وهناك الكثير والكثير من مثل هذه الأمثلة التي تعرضنا لها ووضحناها في سياق نقدنا لبعض الإنتاج الأدبي، خاصة حينما يتعرض الكاتب لوصف بعض الظواهر العلمية أو يتعرض في كتابته لبعض الأجهزة أو الأمور العلمية التي يخلط فيها الكاتب بين أسماء أو مفاهيم علمية غير صحيحة.

وفي اعتقادي المتواضع أن الاشتغال بالعلم نشاط ساحر يبعث على النشوة والسعادة وتحقيق الذات لا يقل إن لم يزد في سحره وجاذبيته عن الانغماس في النشاط والإنتاج الأدبي سواء بسواء، فكلاهما لا يستغنى عن الخيال، ولن أجد أفضل من أحد رواد علم المناعة . ولعل أصله عربي من لبنان . وهو العالم البريطاني الدكتور بيتر ميداور (1915 . 1987) لكي يعبر لنا عن هذا المضمون حيث يقول: "لقد آن الأوان لكي يتخلى رجل الشارع عن الاعتقاد المضلل بأن البحث العلمي عمل تنقصه حرارة العاطفة والإثارة، ويخلو من مزايا الخيال، وأن العالم رجل منصرف إلى الاكتشاف؛ لأن البحث العلمي في أى مرحلة من مساره هو مشروع ساحر مثير، بل إن الارتقاء في المعرفة الطبيعية يتوقف قبل كل شيء على إيجاد منفذ إلى ما يمكن تخيله وإن لم يزل غير معروف."[10]

القراءة والكتابة:

ومن جهة أخرى، فإن ارتباط الأدب بالحياة يفضي بنا إلى مسالك ومشارب وشئون عديدة شارك فيها كثير من المفكرين، والفلاسفة، والأطباء،

والباحثين، وغيرهم، من هنا وهناك، وفي هذا الزمن وما سبقه من أزمان، بلغتنا واللغات الأخرى. فليس صحيحاً أن الأديب يحتاج فقط إلى العلوم اللغوية والأدبية مهما تعددت وتنوعت أسماؤها وبلغت أهميتها، فهذه من شأنها استقامة عبارته واتساقها، ولكن الألفاظ والعبارات –كما يشير القيروانى[11]– أجسام روحها المعاني والأفكار، ولن تكون ثمة معانٍ وأفكار بغير ثقافة عريضة متنوعة لا تتأتى إلا بالقراءة في كل مجالات المعرفة وألوانها المختلفة.

فإذا كان التأليف يستلزم الاستعمال السليم والرشيق لأدوات التعبير المختلفة لدى من يمتلكون ناصية اللغة، فإن هذا لا يجعلهم يستغنون عن "المادة الخام" والتي نعنى بها المعرفة المتراكمة سابقاً، والأفكار والحقائق والتكهنات المطروحة في الكتب والدوريات والمجلات ووسائل الإعلام المختلفة المسموعة منها (الراديو) والمرئية (التليفزيون والسينما)، إضافة إلى ممارسات المؤلف العملية والنظرية والحياتية اليومية؛ وبهذا فإن الاطلاع المتواصل، الواسع والعميق، هو شرط أساسي من شروط المثقف المنتج للثقافة بشكل عام.[12]

وفي العصر الحديث فقد أصبح التلاقح الفكري المعتمد على تخصصات شتى ليس بينها علاقة مباشرة هو السمة الغالبة في معظم البحوث والدراسات حتى إن القرن التاسع عشر في العالم الغربي قد تميَّز بدخول النظريات العلمية مجال البحث الأدبي، كما تميَّز القرن العشرون بدخول العلوم الإنسانية كعلم الأنثروبولوجيا وعلم الاجتماع وعلم النفس، وما أدى إليه هذا من تشكُّل المناهج العديدة في النقد الغربي: الأنثروبولوجي والاجتماعي والنفسي... وحين بدأ نقدنا العربي الحديث معتمداً بصورة ملحوظة على النقد الغربي، مقتبِساً واحداً تلو

الآخر من مناهجه، فقد كان بديهياً أن يقتبس منه نقادنا أيضاً المنهج النفسي، وأن يطبقوه على أدبنا، ليس الحديث منه فحسب، إنما كذلك الأدب القديم، لِما يمكن أن يكون قد تشكَّل لدى النقاد من فضول لسبر نفوس مبدعيه بكل ما تنطوي عليه، وإثبات تلاقيها مع نفوس مبدعي الأدب الحديث، ومن ثم إثبات وحدة النفس الإنسانية بين البشر، مهما تباينت العصور والبيئات.[13]

ومن طريف ما يُذكَرُ في هذا الصدد ما أبدعه الكاتب الكبير إبراهيم المازني حينما أكد على أهمية القراء بالنسبة للكاتب أو الأديب في لوحة فنية كاريكاتورية بديعة شبّه فيها الكاتب نفسه "بعربة الرش" ، وفي هذا يقول: مضت شهور لم أكتب فيها كلمة في الأدب؛ لأنى كنت أقرأ! والقراءة والكتابة عندي نقيضان، وقد كنت – وما زلت– أمرؤا يتعذر عليه، ولا يتأتى له، أن يجمع بينهما في فترة واحدة. ولكم أطلت الفكر في ذلك فلم يفتح الله علىّ بتعليل يستريح إليه العقل ويأنس له القلب. وما أظن بي إلا أن الله . جلت قدرته . قد خلقني على طراز "عربات الرش"! التي تتخذها مصلحة التنظيم . خزان ضخم يمتلئ ليفرغ، ويفرغ ليمتلئ ! وكذلك أنا فيما أرى: أحس الفراغ في رأسي، وما أكثر ما أحس ذلك ! فأسرع إلى الكتب ألتهم ما فيها وأحشو بها دماغي هذا الذي خلقه الله لي خلقة عربات الرش كما قلت! حتى إذا شعرت بالكظة، وضايقني الامتلاء، رفعت يدي عن ألوان هذا الغذاء، وقمت عنه متثاقلا متثائبا مشفقا من التخمة، فلا ينجيني إلا أن أفتح الثقوب وأسح! وهكذا دواليك! [14]

أما ما ذكره المازني عن الكتب وقراءتها فيمثل قطعة بديعة حيث يقول: وأمري مع الكتب أغرب. كنت في أول عهدي بها أذهب في أول كل شهر إلى

واحد من باعتها فيتقدم إليّ العامل سائلا عن حاجتي فأبينها له فيرفع رأسه إلى الرفوف ويدور حول نفسه وهو في مكانه، ثم يلتفت إليّ وعلى شفتيه –دون عينيه– ابتسامة جهل وغباء، ويهز لي رأسه آسفا. فأنحّيه عن الطريق وأمضى إلى الرفوف وأجيل عيني فيها وآخذ منها ما يروقني وأنصرف عن الحانوت بأثقل من حِمل حِمار! وأغرق فيها بقية الشهر إلى ما فوق الأذنين إن كان فوقهما ما يستحق الذكر! ولا تمضى ليلة إلا طالعت في بعضها قليلاً أو كثيراً، فكانت الكتب أنيسي في وحدتي وسميري في خلوتي، وكنت أستغني بها عن متع الحياة، ولذات العيش، وأقول إنها تُدْخِل في متناول الحس العواطف والمُدركات وكل ما له وجود في العقل، وأنها توقظ الحواس الخامدة والمشاعر الراكدة وتملأ القلب وتشعر النفس كل ما تستطيع الطبيعة البشرية احتماله وكل ما له قدرة على تحريكها وابتعاثها، وتُدرّب المرءَ على الاستمتاع بتدبر عظمة الجلال والأبد والحق، وأنها تمثل ذلك للإحساس وتحضره للذهن وتكشف لنا عن وجوه الألم والحزن والخطأ والإثم، وإنها تعين القلب على تعرف الهول والفزع والسرور واللذة، وتخفق بالوهم على جناح الخيال وتفتنه بسحر عواطفه وخواطره، وأنها تسد النقص في تجاريب المرء وتثير فيه تلك العواطف التي تجعل حوادث الحياة أشدّ تحريكا لها وتجعله أشد استعدادا لقبول المؤثرات على اختلاف أنواعها ودرجاتها ؛لأن كل حقيقة واقعة يجب أن تَمْثُل في الرأي قبل أن يتعرفها الذهن أو تؤثر فيها الإرادة، ومن أجل ذلك كان سواء على المرء أن تؤثر فيه الحقيقة الواقعة بالذات أو يأتي التأثير عن طريق آخر كالصور والرموز التي تمثل هذه الحقيقة.[15]

قراءة الواقع:

هذا، ولا نعنى بالقراءة هنا الاقتصار على قراءة الكتب فحسب، وإنما الالتحام بالواقع ومجريات الأمور في الحياة التي نعيشها حتى لا ينفصل الكاتب أو الأديب عن الحياة وعن الناس فيكون في وادٍ وهم في وادٍ آخر! ولهذا ينعى الدكتور نبيل رغب على بعض الأدباء والمفكرين والكُتاب تقوقعهم في أبراجهم العاجية بعيداً عن مجريات الأمور حتى يتفرغوا لإخراج إنتاجهم إلى الوجود واصفاً هذا السلوك بالإغراق في الوهم والسذاجة؛ إذ الأديب لا يستمد مضمونه الفكري من بنات أفكاره حينما يختلى بنفسه، وإنما يسعى لاكتشاف القوانين التي تحكم العلاقات بين الإنسان والمجتمع والطبيعة والكون ثم يجسدها في أعماله فيصبح الإنسان أكثر وأعمق وعياً بنفسه وبحياته وبعصره وبواقعه، ليس من خلال المضمون الفكري الذي يقدمه العمل الأدبي فحسب، بل من خلال العلاقة العضوية بين هذا المضمون والشكل الفني الذي يشكل التجربة الجمالية والنفسية التي يمر بها المتلقي فتعيد صياغة فكره ووجدانه وتجعلها أكثر اتساقاً مع قوانين المجتمع والكون والطبيعة. ولهذا يتحتم على الأديب الواعس الناضج أن يسبر غور واقعه، وأن يصل إلى أعمق أعماقه حتى يستخرج عروق الذهب من كهوفه المظلمة الموحلة، لا أن يعتزل في برجه العاجي فتنفصل جذوره عن التربة الخصبة التي تمد أدبه بالحياة والنماء.[16]

ويؤكد الدكتور راغب على أن المضمون الفكري غالباً ما يرتبط في ذهن القراء بل والنقاد بالمعنى أو الهدف الذي يقصده الأديب من عمله، ويحاولون جادين تحديده وتفسيره. فإذا كان المعنى في المضمون العلمي محدداً غاية التحديد . بل

وينبغي أن يكون هكذا . وإلا ضاع المنهج العلمي لبلوغ الحقيقة او المعادلة أو النظرية أو القانون العلمي، فإن المعنى في المضمون الأدبي لابد أن تتعدد أصداؤه ودلالاته ومعانيه وإيحاءاته من متلق إلى آخر، ومن عصر إلى آخر سواء على مستوى المفاهيم العامة أو الألفاظ والمفردات الخاصة بالعمل الأدبي؛ ذلك أن المتلقي يقوم بإسقاط تجاربه الخاصة والذاتية على العمل الفني الذي يثير مثل هذه التجارب والخبرات داخل المتلقي نتيجة لارتباطات شرطية بينها وبين عناصر العمل، وبالتالي فإن النسبية هي التي تحكم قنوات التلقي بين العمل الفني والمتلقي. (17)

وفي دراسة أخرى يرى الدكتور راغب أن الأديب الواعي هو الذي يجسد التفاعل بين هذه الأفكار والمضامين وبين تطورات العصر الذي يعيشه، والذي يلقي عليها أضواء جديدة، وينظر إليها من زوايا معاصرة، لم تكن تتأتى لمن سبقوه من الذين عالجوها وجسدوها في أعمالهم. فالأديب ابن عصره، فإذا فشل في استيعاب روحه وتجسيدها فلن ينجح في استيعاب أى عصر آخر لم يعشه بالفعل، وبالتالي لم يعايشه؛ فليس هناك مصدر لتلك الطاقة المتجددة التي يملكها الأدب سوى ذلك التفاعل المستمر بين الأفكار والمضامين الإنسانية التراثية، وبين معطيات العصر وتفاعلاته المستمرة مع دورة الزمن الأزلية.(18)

الموسوعية والدراسات البينية في تراثنا:

الدراسات البينية Interdisciplinary Studies ، من ناحية أخرى، هي مساحات معرفية يلتقي خلالها الدارسون المتمرسون والباحثون الجادون، ويتعرف بعضهم على نشاط البعض الآخر، ثم إنها–من جهة أخرى– تمثل ساحات

للحوار بين أصحاب الاهتمامات العلمية المتباينة الذين يدركون جيداً أن السجالات العلمية الخصبة لا يمكن أن تنحصر في نطاق أهل التخصص فيما يشبه الدوائر المغلقة؛ ومن ثم يصبح من الضروري الالتقاء بين التخصصات المتقاربة والمتباعدة أو التي قد يُظن أنها متنافرة.

إنها بمثابة الطريق الثالث بعد أن سلك الفكر سبيلين سابقين: الموسوعية الشاملة ثم التخصص المنعزل. وأزعم أنى لا أغالى إن قلت: إنها تجمع بين محاسن كلا السبيلين، وتتجنب – في الوقت ذاته– مثالب كلٍّ منهما منفرداً.

وثمة نماذج رائدة في تراثنا القديم والحديث، ما ذاع صيتها، وما لمع نجمها إلا لكونها قد جمعت بين الموسوعية والتخصص في مجال معين من المجالات؛ ومن ثم فقد اتسمت بالشمولية ولم تعدم العمق، ولهذا جمع بعضهم بين لقبين أو أكثر، كأبي حيان التوحيدي أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، وابن سينا الفيلسوف والعالم والطبيب، كما جمع بعضهم بين التاريخ والفلسفة والأدب وعلم الاجتماع كابن خلدون، وقد يجمع بعضهم بين الطب والفلسفة والأدب، أو بين الفلك والرياضيات وعلوم اللغة أو بين العلوم اللغوية والأدبية وعلوم الأحياء . كعبقري العربية الجاحظ مثلا، ثم إنهم قد تركوا لنا رسائل ومؤلفات في هذه المجالات مع شهرتهم في مجال معين، والنماذج في هذا الصدد كثيرة كالرازي، والبيروني، وابن النفيس، وابن رشد، وابن الأثير، وغيرهم.

وقد رصد صاحب كتاب "فرسان الثقافتين: أدباء العلماء"[19] أكثر من سبعة عشر نموذجاً معاصراً ممن جمعوا بين ثقافتي العلم والأدب كالدكاترة: أحمد زكى ، وحسين فوزى، ومحمد كامل حسين، ومحمد عوض محمد، ومحمود حافظ،

ويوسف عز الدين عيسى، ومحمد يوسف حسن، وعبد العظيم أنيس، وعبد المحسن صالح، وأحمد مستجير، ومصطفى محمود، وغيرهم.

التكامل المعرفيّ والتراث العربيّ:

ولعل نظرة متأنية في تراثنا العربي تدل دلالة واضحة على وجود مثل هذا التكامل المعرفي بحيث لا يجد الراصد "فصلاً تعسفياً" بين الثقافتين العلمية والأدبية، بل سيجد أمثلة رائعة لمزج الثقافتين في بوتقة واحدة، لِيُقطرَ منها القارئ علماً وأدباً في الوقت ذاته، وربما كان كتاب أبي عثمان عمرو بن بحر المعروف بالجاحظ، الذي وضعه في بداية القرن الثالث الهجري بعنوان "الحيوان" من أشهر وأوضح هذه الأمثلة.

والنماذج بعد ذلك كثيرة في كل المجالات، فقد تجد الكاتب يكتب بإسهاب في التاريخ أو الأدب الجغرافي ثم تجده أيضا يُصَنِّف بالمثل في الجيولوجيا أو علوم النبات والحيوان والإنسان، فهذا زكريا بن محمد بن محمود القزويني الذي كتب "آثار البلاد وأخبار العباد" في الجغرافيا والتاريخ هو أيضاً الذي ترك لنا "عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات". وهناك أيضا الشيخ الرئيس ابن سينا الذي ملأ الدنيا فلسفة وحكمة وطباً وعلماً بل وكان له إسهام – على نحو ما– في الشعر أيضاً. ويجري على سنته في ذلك آخر فلاسفة العرب الوليد بن رشد.

أما بالنسبة للثقافة العربية الحديثة فثمة علاقة جديرة بالتسجيل، بالنسبة لموقف الفكر العربي من قضية العلاقة العضوية بين العلم والأدب، وهى أن هذا الفكر كان سباقاً إلى مواكبة كل المحاولات العالمية المعاصرة لرأب الصدع وسد الفجوة المصطنعة بين العلم والأدب. إلا أن هذه المواكبة لم تكن ذات آثار

حاسمة وفعّالة لأنها – في معظم الأحيان– لم تخرج عن نطاق المحاولات الفردية، أو الجهود المتناثرة المبعثرة، التي لم تتخذ بعدُ شكل الحركة الفكرية أو الثقافية أو الحضارية، ومن ثمّ لم يتح لها الترجمة الحقيقية، ولم تتمكن من أن تخرج إلى حيز التنفيذ على نطاق واسع، في مجالات التعليم العام، أو التثقيف الذاتي، في العالم العربي، بصفة عامة[20]؛ إذ لو تثقف الأديب بعض الثقافة العلمية لامتلأ الأدب بالتشبيهات بالمعاني الحديثة، فكم في الكهرباء والمغناطيسية من ذخيرة أدبية، ولو تثقف العالم بعض الثقافة الأدبية العامة لحسُن تعبيره، وازدان منطقه، ووضح مَقصِدُه.[21]

والأمثلة في أدبنا العربي الحديث كثيرة، ومن أبرزها المرحوم إسماعيل مظهر أفضل من كتب عن نظرية التطور وأول مترجم لكتاب "أصل الأنواع" لتشارلز داروين، والشاعر العراقي صدقي الزهاوي، والكاتب اللبناني المتمصر منشِئ دار الهلال جورجى زيدان، والكاتب الموسوعي عباس العقاد، والكاتب سلامه موسى، فضلاً عن أدباء العلم بحكم تخصصاتهم الأساسية، سواء في الطب، أو في النبات والحيوان، أو في الكيمياء والجيولوجيا، أو في علوم البحار، وغيرها، من أمثال: الدكتور محمد كامل حسين، والدكتور عبد الحليم منتصر، والدكتور أحمد زكى، والدكتور محمد يوسف حسن، والدكتور يوسف عز الدين عيسى، والدكتور حسين فوزى، والدكتور أنور عبد العليم، وغيرهم. وقد بدت هذه الظاهرة واضحة في كتابات كثير من الكتاب المعاصرين من أمثال الدكتور زكى نجيب محمود، والدكتور أحمد مستجير، وأنيس منصور، والدكتور مصطفى محمود، والدكتور عبد السلام العجيلى، ورجب سعد السيد، وغيرهم.

ولعله بات من المثير للضحك أن تسأل طالبا أو خريجا في كلية الآداب أو الحقوق، أو غيرهما من الكليات النظرية، عن حاصل ضرب 5 × 6 فيكون جوابه: آسف، لا أستطيع الإجابة، إذ إن تعليمي ومِن ثمّ ثقافتي أدبية!!

هذا، والأمر ليس مقصوراً على الأدب العربي أو الثقافة العربية، كما أوضح سنو، في محاضرته عام 1959 في جامعة كمبردج والشهيرة باسم "محاضرة ريد"، ثم نشرها بعد ذلك في كتاب تحت عنوان "الثقافتان والثورة العلمية" عام 1961. وفحوى المحاضرة والكتاب كما يقول الأستاذ العقاد: عَرْضٌ لمشكلة الثقافتين عند الأمم الغربية، والمقصود بها الانفصال بين ثقافة العلم وثقافة الأدب، واتساع الهوة فترة بعد فترة بين تفكير العلماء وتفكير الأدباء وأصحاب الآراء النظرية، مما ينذر بإصابة "الشخصية الإنسانية" في هذا العصر بداء كداء الفصام، ويجعل الإنسان الناشئ على إحدى هاتين الثقافتين دون الأخرى كأنه نصف إنسان[22]! وكما عبر عنها سنو نفسه ببساطة حيث يقول: أعتقد أن الحياة الفكرية في جميع أنحاء المجتمع الغربي تزداد في انقسامها واستقطابها إلى مجموعتين: هما مجموعة المفكرين الأدباء في جانب، ومجموعة العلماء في الجانب المقابل.

وعلى الرغم من ذلك، فإن هذه الفجوة الملحوظة، في الوقت الراهن ومنذ فترة ليست قصيرة، لا تضرب بجذورها في ثقافتنا العربية، وتراثنا الفكري العريق، بل إن هناك نماذج رائعة في تاريخنا الثقافي والحضاري تدل على وجود هذا التكامل المعرفي، ولعل ذلك كان أحد العوامل القوية في نهضتنا على كل المستويات، في تلك الحقبة من الزمان. وفي هذا السياق أذكر تعريف العرب للكاتب، فقد

جاءوا فيه: "إنه نفس واحدة تجزأت في أبدان متفرقة". ويعلق على ذلك الأستاذ إبراهيم الإبياري – رحمه الله– قائلا: وهم يعنون أنه قد اجتمع له ما تفرق في آحاد كثيرة، من علم ومعرفة وبصر وخبرة. وهذا هو المعنى الذي يحمله لفظ المثقف.

جدوى التكامل المعرفيّ:

ومن إيجابيات التكامل المعرفي أيضاً توجيه الجهود نحو استفادة كل فريق بما ينتجه الفريق الآخر. فمن المظاهر الفجة مثلاً للفجوة بين الفريقين، إغفال العلميين للإفادة من إنتاج غيرهم من المشتغلين بعلوم اللغة وفنون الأدب، ويستوى هذا بالنسبة للإفادة من كنوز التراث أو حتى من إصدارات مجمع اللغة العربية، فيما يختص بالمصطلحات العلمية، التي يمكن أن تعين على ترجمة كل من العلوم الطبية، والعلوم الطبيعية، والرياضية؛ ليدرسها أبناؤنا بلغتهم الأم فيتشربون العلم على وجهه الصحيح. ومن ناحية أخرى، ينبغي على المتأدبين أن يتعرفوا إلى الحد الأدنى من المصطلحات والمفاهيم العلمية حتى يستقيم لهم التعبير عنها حينما يتعرضون لها في مؤلفاتهم وأحاديثهم؛ ذلك أن الثقافة – كما يقول الأستاذ إسماعيل مظهر –: هى الأصل الذي يرتكز عليه الطبع الماثل في أخلاق الأمم وطرق سلوكها في الحياة، فما قولك في ثقافة يرتشفها الطفل مع ما يرتشف من لبن أمه وهو رضيع، ويشب مكتنفا بها إذا أيفع، ويفتن بفنونها إذا صار فتياً، ويغرم بها إذا اكتهل، ويموت وهى مرتسمة في تصوراته جميعا إذا هرم[23]. ومن جهة أخرى، إذا كانت إحدى ثمرات العلم هي التكنولوجيا، التي ليست بالضرورة قوة مُحايدة، إذ إنها قد تكون قوة باتجاه الخير مثلما يمكن لها

أن تكون باتجاه الشر؛ ولذا تستطيع الثقافة التقليدية التي تحدث عنها س. ب. سنو، ووجَّه إليها انتقاداته الحادة، أن تلعب دوراً مُهمّاً في الحدِّ من ممارستها لِتوَجُّهاتِهَا القبيحة وأدوارها السيئة بعض الشيء، ومن ثم تصبح حاجتنا شديدة إلى علماء وتقنيين، يتحصنون بقدر ما من هذه الثقافة الأدبية.[24]

وجدير بالذكر أن تراثنا حافل بمثل هذه المؤلفات العلمية واللغوية، نذكر منها– على سبيل المثال– عنواناً مثل: "خلق الإنسان" الذي كتب فيه كل من أبى سعيد الأصمعي، وأبي مالك عمرو بن كركرة، وأبي محمد ثابت بن أبي ثابت، وأبي إسحاق الزجاج، وأبي عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافي.

أما بالنسبة لأسماء أعضاء جسم الإنسان فهناك أيضا من هذه الكنوز: "في أسماء أعضاء الإنسان" لأحمد بن فارس، و "في ذكر أعضاء الإنسان" لأبى البركات الغزى العامري، و"فقه اللغة وسر العربية" للثعالبي. أما بالنسبة للموسوعات اللغوية التي تعنى بالمصطلحات العلمية والطبية فمنها: "غريب المصنف" لأبي عبيد القاسم بن سلام، و"نظام الغريب" للربعي، و"المنجد في اللغة" للحسن بن الهنائى، و"التلخيص في معرفة الأشياء" للعسكري، و"المخصص" لابن سيده الأندلسي، و"الإفصاح في اللغة" لعبد الفتاح صعيدي وحسين يوسف موسى.

وثمة كتب أخرى تهتم مادتها بالألفاظ والمصطلحات العلمية والتعليمية في شتى مناحي العلوم الإنسانية، والأدبية، والطبيعية، والطبية، نذكر منها: "أدب الكاتب" لابن قتيبة الدينَوَرى، و"متخير الألفاظ" لابن فارس، و"الألفاظ الكتابية"، و"تهذيب الألفاظ الكتابية" للهمذانى، و"تهذيب الألفاظ" لابن السِّكيت، و"مبادئ

اللغة" للإسكافي، و"شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم" لنشوان بن سعيد الحميري، و"نجمة الرائد وشرعة الوارد في المترادف والمتوارد" لإبراهيم اليازجى.[25]

وعلى مستوى الإنتاج العصري الحديث، فهناك مجموعة المصطلحات العلمية في شتى العلوم التي قامت بها اللجان المتخصصة في مجمع اللغة العربية في مصر والبلاد العربية، ونجم عنها مجموعة هائلة من المعاجم والقواميس اللغوية المتخصصة، كمعجم البيولوجيا، ومعجم المصطلحات الطبية، ومعجم الجيولوجيا، ومعجم الكيمياء والصيدلة، وغيرها من المعاجم المتخصصة التي أصدرها مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

القضية في التراث الغربي:

أما على المستوى العالمي فإن هذه القضية قد سبقت "سنو" بوقت طويل، وعموماً فإنها تثار من وقت إلى آخر، وقد أثارها العالم والطبيب الفرنسي الشهير صاحب كتاب "الإنسان ذلك المجهول" وهو اليكسس كارل (1873 – 1944) Alexis Carrel ، الذي انتقد المتخصصين، الذين ينكفئون على ذواتهم فب دوائر ضيقة يتخصصون فيها، وينعزلون عن العالم، لا يدرون بما يدور حولهم، وهذا ليس في صالح النظرة الإنسانية التكاملية الشاملة، التي تخدم الإنسان في النهاية. فالنظر الجزئي المبتسر للإنسان لا يخدمه، ومن المفيد جدا أن يحاول المتخصص، الذي يدرك جزءاً من كل، أن يعنى بتخصصه في إطاره الصحيح من الكل، غير مبتور أو منبت الصلة عنه، فللجوانب والتخصصات الأخرى – بلا شك – صلة ما بتخصصه.

ثم جاء الباحث الألمانى إرنست روبرت كيرتيوس Ernest Robert Curtius (1886-1956) صاحب الكتاب الشهير European Literature and the Latin Middle Ages "الأدب الأوروبى والعصور الوسطى اللاتينية" ليؤكد أن التخصص دون رؤية شمولية أعمى، وأن الرؤية الشمولية دون تخصص هى رؤية جوفاء؛ وذلك في معرض تأكيده على أهمية التكامل بين التأمل الشامل والتخصص الدقيق لقراءة الأدب الأوروبى قراءة واعية، وأكثر صحة وعمقاً.(26)

ويعلق الدكتور سعد البازعِي على هذا المضمون الفكري الأوربى فيقول: "ومن يتأمل العبارة في سياقها سيجد أنها تتضمن ما لا يقتصر على التكامل الذي يشير إليه كيرتيوس، وإنما تتعدى ذلك إلى ألوان أخرى من التكامل أو المزاوجة بين مختلف فروع المعرفة ومناهج الوصول إليها وما تعج به تلك الفروع والمناهج من مفاهيم ومصطلحات؛ إذ تكمن أهمية ذلك في التكامل بين التأمل الشامل والتخصص الدقيق لقراءة الأدب قراءة متدبرة ومتأولة لا تركن للجاهز، بل تتجاوز مقولة الشمولية إلى مقولة التداخل بين العلوم والتكامل بين مختلف فروع المعرفة.(27)

إن الثورة العلمية والمعرفية، التي تفجرت مؤخراً، قد أثّرت حقاً على الفكر والأدب وعلى الحياة بشكل عام، ومن المؤكد أن تأثيرها سيزيد بأسرع وأقوى مما نتخيل مستقبلاً، فإذا أردنا لأبنائنا أن ينخرطوا ضمن ذلك الفريق العالمي الذي سيشكل حياتنا في المستقبل القريب، فلابد أن نرفدهم بمعين لا ينضب من هذه الثقافة العلمية بمجالاتها المتنوعة، وخاصة تلك الدراسات المبنية على العلوم

والتخصصات البينية بحقولها المختلفة؛ ليتولد لديهم إحساس حقيقي بأهمية التكامل المعرفي، وتتوافر لديهم دراية بأبعاده وخطورته[28] وفائدته في صلب تخصصاتهم.

الدراسات البينية وثقافة الناقد:

لعل الناقد الأدبي هو من أشدّ النماذج حاجة لمثل هذه الدراسات البينية، وأكثر من غيره من مختلف التخصصات الأخرى. والمراد من إلمام الناقد بهذه الأنساق المعرفية أن يكون على اطلاع وافٍ بالموضوعات التي ينقدها، بل والوقوف أيضاً على علاقة هذه الموضوعات بغيرها من فروع التاريخ، والفلسفة، والاجتماع، وعلم النفس، وغيرها من علوم. وليس معنى هذا أن يصبح فيلسوفاً أو مؤرخاً أو عالماً من علماء النفس إلى غير هذا من درجات التخصص في العلوم المختلفة، وإنما المراد أن تكون لديه فكرة واضحة عن هذه الحقول المعرفية ومصطلحاتها، وصلتها بالموضوعات التي يطرقها في مجاله. فالفيلسوف بما أنه يستخدم اللغة في موضوعاته المختلفة فإن عليه أن يلبس عباءة الأديب؛ ليتمكن من التعبير الجيد، ويمتلك القدرة على تقديم أفكاره إلى قارئيه، وللناقد الأدبي أن يبدى ملاحظاته على بيان الفيلسوف وأسلوبه؛ ومن ثمّ إصدار أحكامه على ما يفهم أو يتلقى من نصّ فلسفي، بيد أنه لا يتمكن من القيام بهذه المهمة إن لم ينفذ إلى المعاني والأفكار لاسيّما أن المعاني مرتبطة بالألفاظ ارتباط الروح بالجسد كما قدمنا.

ولدينا مثالان بارزان في هذا الصدد هما الكاتب التونسي الدكتور عبد السلام المسدِّي، والكاتب المصري الدكتور عبد الوهاب المسيري. فأولهما(المسدي) من

القلائل الذين جمعوا بين الأصالة والمعاصرة بمعنيهما حيث عمد إلى الاحتفاظ بالموروث اللغوي اللساني مع الأخذ بكل ما هو جديد في حقل هذه الدراسات وتطويعها للبيئة العربية بفضل قراءاته الواسعة في الثقافة الغربية، لاسيما الثقافة الفرنسية على نحو خاص. ونظراً لمؤلفاته الرائدة في هذا المجال يُعَدُّ المسدي واحداً من أبرز آباء العلوم اللسانية وتوظيفها في النقد الأدبي. وللمسدي كتاب رائد مهم في مجال ما يُعرف اليوم باللسانيات العرفانية أسماه "اللسانيات وأسسها المعرفية" وضع فيه المبادئ والأسس التي شاد عليها النقاد المحدثون هذا الاتجاه الجديد، حيث ذكر في صدر مقدمة كتابه سالف الذكر: فالمنهج المُتوَخَّى في المعارف اللغوية يُزاوِجُ – في غير اعتدال – بين تقديم المضامين اللسانية لمن لم تطل عشرته لهذا العلم المتنامى، والبحث عن الأصول الأولية: من دعائم ذهنية، وضوابط منهجية، ومصادرات استدلالية، واستثمارات نفعية، وفي كلّ ذلك تتجمع "الأسس المعرفية" التي ننشد استكناهها.[29] ومن يطّلع على هذا الكتاب يهوله كم النماذج التي يستقيها الرجل من دراسات بينية وحقول معرفية مختلفة، من علوم طبية إلى علوم إنسانية كالفلسفة، والمنطق، وعلم النفس إلى علوم طبيعية كالفيزياء والكيمياء وعلوم الحيوان، وغيرها . رفدته بالأفكار والمعانى التي رصفها أو نظمها في كتابه انتظام الدر الثمين في عقد فريد.

أما النموذج الثاني وأعني به الدكتور المسيري– وهو الأكاديمي المتخصص في اللغة الإنجليزية – فقد اعتمد في نقده للأنساق الحضارية، خاصة الغربية منها، لاسيما إحدى تجلياتها مُمثلة في الحداثة، أقول اعتمد الرجل في نقده ذاك على الدراسات التاريخية، والفلسفية، والمنطق، وعلوم النفس،

والأساطير (الميثولوجيا)، وعلم الجمال (الاستاطيقا)، والدراسات السياسية، فضلاً عن علوم اللغة المختلفة؛ ولهذا لم نستغرب ما وصفه به أحد الجادين من المشتغلين بالفكر والفلسفة حينما وصفه بصائد الذئاب المُتلونة، "والأنتى بوست مودرنست" Anti-post-modernist (أىْ المناوئ لما بعد الحداثة)، حامل أفراح المستقبل، كاشِف الحجب عن موساد وأرض الميعاد، ناقد الحضارة الغربية، مُحاصر الصهيونية معرفيا. صاحب فقه التحيز، أبيستميولوجى النماذج الوظيفية والخرائط الإدراكية، الناقد الأدبي، عالم اجتماع المعرفة ... مفكر من نوع فريد، كتَبَ في أجناس أدبية، متعددة ومجالات معرفية متنوعة؛ مما أثار دهشة ونقد ورفض كهنة الأكاديميين، وخفراء العلم المتخصصين[30]. والواقع أن المسيري لم يتسنَّ له أن يجمع بين هذا الشتيت إلا بثقافة موسوعية شملت ضمن ما شملت تلك الدراسات البينية التي يغفل عن تحصيل محتواها كثيرون.

ومع هذا لابد من ضوابط:

وإذا جاز التصوّر أنه لا مندوحة عن الدراسات البينية باعتبارها مسعى منهجياً لانصهار وتلاشِي الحدود بين التخصصات، وجعلها أكثر رخاوة أو سيولة، وأكثر شفافية وقدرة – مِن ثمّ– على السماح بامتزاجات معرفية ومنهجية قادمة من تخصصات مجاورة أو حتى غير مجاورة، فإنه ينبغِى تجاوز استقلالية العلوم باتجاه اتحادات ذات حدود متساهلة لا تطالب بفحص جوازات السفر وهويات المسافرين، ولا تقيم حواجز تفتيش يُسأل فيها العابرون عن مؤهلات أو مسوِّغات مرورهم. وما نتطلبه هو تجاوز ما أطلق عليه ميشيل فوكو فواصل الخطاب، وصرامة التقسيم بين خطابات المعرفة والعلوم المختلفة حتى يتسنى

لعالم الاجتماع مُساءلة القضايا التاريخية، ويتاح للمؤرخ الدخول في معترك البحث الاجتماعي، ويتهيأ لدارس الأدب ميدان الدراسات الإعلامية، وهكذا. صحيح أن هذا مُتاح، بَيْد أنه موجود على استحياء، وأخطر من ذلك دون وعي علميٍّ كافٍ، وهذه المسألة الأخيرة في منتهى الأهمية، وتستلزم توضيح المُراد بفتح الحدود، فليس من السهل- بل لا يجوز- أن يُلقِي كل من هبّ ودبّ بتنظير ما أو يتوصل إلى نتيجة ما في علم أو ميدان لم يَبذل جهداً في معرفة معطياته وحدوده؛ أيْ أنه لا ينبغي - بمعنى آخر- فتح باب القول على مصراعيه في كل شيء تحت لافتة الدراسات البينية.[31]

ولهذا يحذر الدكتور البازعِي من غياب الضوابط التي تحكم التداخل بين العلوم المختلفة؛ إذ لا ينبغي - بتعبير آخر- فتح باب القول في كلّ شيء تحت مظلة الدراسات البينية. فهذه الدراسات إذا كانت ضعيفة في بناها الأكاديمية، فإنها يمكن أن تكون غاية في الفوضى إنْ فتحنا أبوابها دون ضوابط. إنّ صرامة الحدود الخطابية التي تفصل العلوم، وتحدد مسوغات القول في علمٍ ما لا تعني إلغاء كل الحدود، وتمييع المعالم بحيث يحلُّ الخلط الجاهل محل التمازج العارف. ما نحتاجه إذاً هو حدود لينة أو مرنة، لكنها تظل حدوداً بمعنى الضوابط الموجودة في بنية كل علم أصلاً.

ويضيف الباحث: إن الدراسات البينية ما هي إلا العلوم المستقلة وقد اقتربت من بعضها بعضاً وتمازجت، لكنها لم تفقد من ضوابطها العلمية، ومقتضياتها البحثية إلا ما يقتضيه الامتزاج من تصورات مبتكرة لأوضاع استجدت نتيجة للتقارب المشار إليه. وحين تذكر الضوابط والمقتضيات فإنما

تشير إلى مسائل إجرائية شائعة في البحث العلمي إجمالاً لكن لها خصوصيتها في العلوم الإنسانية. وتلك المسائل معروفة لدى الدارسين، فهي تشمل: القراءة المدققة، والمقارنة بين المعطيات، وإقامة الفرضيات واختبارها، وضبط المراجع وموثوقيتها، إلى غير ذلك مما لا حاجة إلى عرضه كاملاً.[32]

من وسائل التكامل المعرفي:

إذا كنا هنا نؤكد على أهمية الدراسات البينية كمعابر وجسور بين العلوم المختلفة استهدافاً للتكامل المعرفي، وشجباً للقطيعة والعزلة التي تجعلنا نفتقر إلى التواصل وكأن كلاً منا يتكلم لغة لا يعرفها محدثه . أقول إذا كان الأمر على هذا النحو فلابد من بعض الإجراءات التي تعمل على بناء المعابر ومَدّ الجسور، ويأتي التعليم في الصدارة للقيام بدور مهم في هذا الشأن سواء في مدارسنا أو جامعاتنا، خلال فترة التكوين المبكرة من حياة الفتى والفتاة، فالتكامل المنشود والوحدة المَرْجُوَّة من الصعب أن تتحقق إلا إذا مهدنا لها في هذه المرحلة المبكرة، وأعددنا لها ما يكفيها من تهيئة الوسائل، وأتحنا لها الوقت الكافي في هذه المراحل الأولى من العمر، بأن خصصنا للشباب ساعات لتربية روحه وفكره، وتنمية مَلكاته، وقدراته على التخيل، وأطلقنا له حرية التعبير عن هذه الملكات، ونَمَّيْنا في مشاعره الإحساس المُبكر بالجمال، وخلقنا في نفسه القدرة على الابتكار، بما نمنحه له في الصغر من وقت لممارسة الأعمال الفنية في حرية، وبما نُضَمّنه من مناهج تكون أساساً لعملية بناء روحي وجسدي متكامل، وألا نجزع إذا أضعنا في هذا الإعداد بضعة أعوام، يُفرَّغُ فيها الفتيان والفتيات لهذا اللون من التربية، ثم نخطو بعد ذلك خطوات في تعليمهم مبادئ العلوم التي

تبدأ بالمعارف العامة، وتنتهي بهم إلى نوع محدد من فروع التخصص أو المعرفة.[33]

يقول أحد عباقرة العلم في هذا الزمان: ينبغي أن يعرض بحماس جمال الطبيعة المُبْهِر الذي يتكشف لنا كلما تنامى فهمنا. ومن المهم أن نوصّل إحساسنا بالروعة ببساطة قوانين الطبيعة، وبسرِّ الطريقة التي تبدو بها الرياضيات مبثوثة في هذه القوانين. وفي هذا السياق، يعطينا "ليون م. ليدرمان" نموذجاً لذلك حينما يقول: ويستطيع مدرس العلم أن يجد هنا أرضاً مشتركة مع مدرسي التربية الفنية، والموسيقى، والأدب.... فإذا عقدت اجتماعات دورية لمدرسين من كل مجالات التعليم، فإن هذا قد يكشف عن وجود صلات ارتباط، بين هذه المجالات، فثمة أدبيات تُعبِّر عن هذه الصلات، وينبغي أن نجعلها موضع اعتبار مُدَرِّسِي المرحلة الثانوية[34]، وبذلك يمكن ترسيخ العلاقة العضوية بين العلم والأدب، منذ بواكير التشكيل المعرفي في حياة الفرد، وتدعيمها في كل مجالات العلوم والمعرفة الإنسانية[35]–على حد تعبير د. نبيل راغب – تلك التي أثبتت على مر عصور الحضارة البشرية أنها وحدة لا تتجزأ.

وهذا النهج من شأنه أن يتيح لنا مِن الأدباء مَن يُلِمون بقدر من المعرفة العلمية، ومِن العلماء مَن يُحيطون بجانب من الثقافة الأدبية؛ إذ إن كثيراً من الأدباء يجهلون أبسط الحقائق العلمية، فهم يعجزون– في زعم "سنو"[36] – عن تعريف أبسط مصطلحات العلم، مثل "الكتلة"*، و"السرعة"* * ، و"القانون الثاني للديناميكا الحرارية"* * * ، حتى إن "سنو" يتهم معظم المشتغلين بالفنون والآداب في القرن العشرين، مثل ييتس (1865. 1939) *William Butler*

Yeat، وإزرا باوند (1885، 1972) Ezra Weston Loomis *Pound*، وويندهام لويس (1882، 1957) Wyndham Lewis بالرجعية، ويصفهم بأنهم ليسوا سخفاء من الناحية السياسية فحسب ولكنهم أيضا أشرار. بيْدَ أن سنو لا يلقى بتبعة الفجوة الثقافية على الأدباء وحدهم؛ إذ إن نصيب العلماء من المسئولية لا يقل عن نصيب المشتغلين بالفنون والآداب، حتى إنه يُصاب بخيبة الأمل حينما يجد أن معظم العلماء لا يعرفون شيئا عن أعمال تشارلز ديكنز الأدبية على سبيل المثال!

الهوامش والتعليقات

1. د. عبد الحليم منتصر (1992). ذكريات عطرة: هؤلاء علمونى. دار المعارف بمصر. ص 33.
2. مركز الأبحاث الواعدة في البحوث الاجتماعية ودراسات المرأة (2017) الدراسات البينية. جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن. المملكة العربية السعودية. ص 6.
3. د. نور الدين بنخود (2015). دليل الدراسات البينية العربية في اللغة والأدب والإنسانيات. مركز دراسات اللغة العربية وآدابها . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية. المملكة العربية السعودية. ص7.
4. المصدر السابق ، ص 17.
5. مؤمن النشرتى (2014). نحو التكامل المعرفي من واقع توظيف الأنطولوجيات في إطار التنقيب عن البيانات: دراسة تحليلية. Cybrarians Journal ، العدد 34. (Cybrarians Journal: دورية إلكترونية محكمة في المكتبات والمعلومات. Designed by pickjoomla.com).
6. رائد جميل عكاشة (؟). التكامل المعرفيّ: أثره في التعليم الجامعي وضرورته الحضارية. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. هوندان . فرجينيا . الولايات المتحدة الأمريكية. 52.
7. المصدر السابق ، ص 49.
8. أحمد بهاء الدين شعبان (2013). العلم والسيطرة: كيف استخدمت إسرائيل تقدمها العلمى والتكنولوجى لبسط هيمنتها على منطقتها؟ المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة. ص 7.
9. د. محمد فتحى فرج (2019). البحث العلمي في مصر: التاريخ .. الأزمة .. الحل. سلسلة المكتبة العلمية. أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا. القاهرة. ص 9.
10. ماكس بيروتى (1999). ضرورة العلم: دراسات في العلم والعلماء.ترجمة وائل أتاسى ، د. بسام معصرانى. سلسلة عالم المعرفة ؛ العدد 245. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب . الكويت. ص 6.
11. ابن رشيق القيرواني (1963). العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. ت: محمد محيي الدين عبد الحميد. المكتبة التجارية الكبرى. القاهرة. الجزء الأول. ص 134.

12. د. هشام غصيب (1992). جدل الوعى العلمى: إشكالات الإنتاج الاجتماعي للمعرفة. المؤسسة العربية للدراسات والنشر. عمان . الأردن. ص 118.
13. د. ريم هلال (2006). الدرس النفسي لأبي نواس ما بين العقاد والنويهي. مجلة جامعة تشرين للدراسات والبحوث العلمية (سلسلة الآداب والعلوم الإنسانية). مجلد28 (1): .ص ص 45 . 54. (ص 47)
14. إبراهيم عبد القادر المازنى (1927). قبض الريح. المطبعة العصرية. القاهرة. ص 12.
15. المصدر السابق ، ص 15.
16. د. نبيل راغب (2002). كيف تصبح أديبا؟ مكتبة الأسرة. الهيئة العامة للكتاب. القاهرة. ص 28.
17. المصدر السابق ، ص 29.
18. د. نبيل راغب (2002). موسوعة الإبداع الأدبى. الشركة المصرية العالمية للنشر . لونجمان. مصر. ص 351
19. د. محمد فتحى فرج (2011). فرسان الثقافتين: أدباء العلماء. العدد 94 من إصدارات خاصة. الهيئة العامة لقصور الثقافة بمصر.
20. د. نبيل راغب (199) . زواج العلم والأدب. سلسلة المكتبة الثقافية . الهيئة المصرية العامة للكتاب.
21. أحمد أمين. (ب.ت.) . فيض الخاطر . الجزء التاسع . الطبعة الثالثة . مكتبة النهضة المصرية . ص2.
22. عباس العقاد (1999) . الإسلام والحضارة الإنسانية . نهضة مصر. ص. 146.
23. إسماعيل مظهر (ب. ت.). فك الأغلال. ص 19.
24. د. رمسيس عوض (1981). س. ب. سنو والثورة العلمية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ص 89.
25. عبد الرحمن شلش (1977). تشريح جسم الإنسان عند العرب. مجلة "الموقف العربى" القاهرية. العدد الرابع. ص 80.
26. Ernest Robert Curtius (1953). European Literature and the Latin Middle Ages tr. Willard R. Trask. Princeton. Princeton University Press, p. ix.

27. د. سعد عبد الرحمن البازعِى (2013). الدراسات البينية وتحديات الابتكار. مجلة الآداب. جامعة الملك سعود كلية الآداب. مجلد 25(2) : ص ص 221. 230.
28. فرسان الثقافتين ، المصدر رقم 19 ، ص 20.
29. د. عبد السلام المسدى (1986). اللسانيات وأسسها المعرفية. الدار التونسية للنشر. ص 7.
30. د. أحمد عبد الحليم عطية (2007). عبد الوهاب المسيري في عيون أصدقائه ونقاده. دار الفكر بدمشق. ص 11.
31. المصدر رقم (27) ، ص 228.
32. المصدر السابق ، الموضع نفسه.
33. د. محمد زكي العشماوي (1980) . الأدب وقيم الحياة المعاصرة . دار النهضة العربية للطباعة والنشر . بيروت . ص 225.
34. ليون م. ليدرمان (2004). "ختام" بقلم ليدرمان لكتاب من تأليف نخبة من العلماء والمربين بعنوان: تعلم العلم في القرن الحادى والعشرين . ترجمة : د. مصطفى إبراهيم فهمى . الهيئة المصرية العامة للكتاب، ضمن مطبوعات مكتبة الأسرة.
35. د. نبيل راغب (199) . زواج العلم والأدب. سلسلة المكتبة الثقافية . الهيئة المصرية العامة للكتاب. ص 144.
36. د. رمسيس عوض (1981). س. ب. سنو والثورة العلمية. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ص 81.

- الكتلة massهى مقدار فيزيائى، وتعرف على أنها مقدار ما يحويه الجسم من مادة ، وهى تختلف عن الوزن في أنها لا تعتمد على قوة الجاذبية؛ أما الوزن فيعتمد على قوة الجاذبية ولذلك يتغير الوزن بتغير المكان.

37. ** السرعة velocity هى معدل تغير المسافة بالنسبة للزمن (أي: معدل التغير في موقعه)؛ وهي كمية فيزيائية متجهة؛ أىْ أنها تقاس بالمقدار والاتجاه.
38. *** "القانون الثاني للديناميكا الحرارية"The second law of thermodynamics : لهذا القانون عدة صياغات ومنها: "لا يمكن للحرارة أن تنتقل تلقائيا من الجسم البارد إلى الجسم الساخن دون بذل شغل خارجي على النظام".

Feasibility of encyclopedism and interdisciplinary studies for cognitive integration

By Mohamed F. F. Bayomy

Abstract

This article discusses the feasibility of encyclopedism and interdisciplinary studies to achieve cognitive integration for intellectuals with different scientific interests, thus it is necessary to meet the cultural needs of those specialists in order to fill the gap between them so that they do not feel like living in isolated islands! By encyclopedism, I mean the comprehensive and serious reading in the various arts, sciences and literature with its various specializations.

As for the interdisciplinary studies, I mean those studies that tend towards an approach that helps in the exchange of research experiences and knowledge and take advantage of the different intellectual backgrounds and research methods between researchers and thinkers in order to integrate them into a comprehensive conceptual and methodological framework that works to expand the field of studying phenomena and issues in an effort to provide a better understanding of them.

As for knowledge integration, its concept can be viewed as a process involving the merging and inclusion of a new information structure in an existing knowledge entity; this is because they share a single conceptual structure or a degree of relevance or substantive relationship, as cognitive integration determines how new information is integrated

with the existing knowledge entity, and how this knowledge entity can be modified to accommodate the new information.

The writer also emphasized the importance of reading in all areas of human knowledge. Those working in creative fields, especially literary criticism, often require the exercise of such activities from encyclopedic reading to interest in interdisciplinary studies in pursuit of cognitive integration. To illustrate these ideas, the author resorted to relying on a set of examples from Arab and Western cultural heritage.